الفصل الرابع :

العمرية مبرأة من الأخطاء

العمريةُ مبرأةٌ من الأخطاء

هل كل الأفعال والتصرفات والمواقف التى صدرتْ عن عمر كانت كلها صوابًا؟

هل حالفه التوفيق فى كلّ فعلٍ فعلَه ، وصادف السدادَ فى كل قرارٍ اتخذه ؟

نسرف على عمر إسرافًا شديدًا إن قلنا نعم .

فعمر إنسانٌ ليس معصومًا ؛ لذا قد يصدرُ عنه الخطأُ ، ويتنكب جادةَ الحقّ والصوابِ ، ولم يصادف التوفيق عمرُ فى عددٍ من الأفعال والتصرفات والمواقف .

وعمر إنسانٌ يحاسبُ نفسه حسابا عسيرًا قبل أن يحاسبه أحد ويراجع نفسه مراجعةً قاسية قبل أن يراجعه أحد . ويظل يتأملْ ويقلبُ الرأى تلو الرأى فيما يصدرُ منه من فعلٍ أو قولٍ أو قرارٍ ولا تأخذه عزةٌ، ولا أنفة أن يعتذر لأى شخص بل يتمادى فى ذلك ليطلبَ القصاصَ من نفسه اقتداءً بنبيه الكريم أو يكفر عن خطئه ، أو يعوض المضرور حتى يصفحَ ، وحتى تطيب نفسُ عمر وتقر .

إنسانٌ تلك صفته ، وهذه سيرته ، وهذا نهجه ،يأخذ نفسَه بالشدة بدون رفق أو رحمة قلما يخطىء، وإن كان احتمال الخطأ واردًا ، وقد يحدث ، ولكن الخطأ يؤكِد ولا ينفى .

يؤكد إنسانية الإنسان .

ولا ينفى كمال هذا الإنسان .

الخطأ درجة من الدرجات التى يترقى فيها الإنسان نحو الكمال ؛ لأنه اختبار وابتلاء لقوته وصدقه وصراحته . والخطأ قدرة نافذة على الفعل ، ويلاحق الإنسان ويسعى إليه سعيًا ، ولم لا نقول إنه جزء من إنسانية الإنسان ؟ فنحن إن استبعدنا توقع الخطأ

من الإنسان فكأننا بترنا جزءًا من مفهوم تلك الإنسانية ، وأصبحت إنسانية ممسوخة ، فلا جدوى ولا زيادة بيان إذا قلت (إنسان يخطىء) ، فيكفى أن أقول (إنسان) حتى يتضمن هذا المعنى ضمن ما يتضمنه الخطأ ، وإنما يبدأ الإنسان يخطو أول خطوات نحو السمو والترقى من الخطأ ، فهو ركيزة يرتكز عليها الإنسان ، أو بداية يبدأ منها لجلاء إنسانيته ، وامتحان لتلك القدرة الفائقة لمحو أثار هذا الخطأ ، نوعٌ من السمو والتعالى عن تلك الجبلة والخلقة من ناحيتين :

- الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ ، لا تزييف ولا تحريف ولا مغالطة ولا مجادلة ولا مماحكة ... نسبة الفعل إلى الذات لتحمل ما يترتب على ذلك .
- رغبة ملحة ، وإصرار دائم فى طلب الصفح ، من خلال الإرادة الصادقة فى إصلاح هذا الخطأ ، وإن عزَّ الإصلاح فهناك التوبة النصوح .

" فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع قال تعالى :

"فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ " (١)

وهذه الحالة الأخيرة بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه:

" فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ " (٢)

١- سورة القلم : الآيات ٤٨ : ٥٠ .
٢- سورة الصافات : الآية ١٤٢ .

فأخبر سبحانه أنه فى تلك الحال مليم والمليم هو الذى فعل ما يلام عليه فكان حاله بعد قوله :

"... لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ "(١)

أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى فى البداية .

والأعمال بخواتيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئا ، ثم علمه فنقله من حال النقص إلى الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال ، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى حال النهاية فى أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائما يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئا من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجه : " قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ "(٢).

وقول نوح " قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ "(٣). وقوله " ... فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ "(٤) وقوله تعالى فى

١- سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .
٢- سورة الأعراف : الآية ٢٣ .
٣- سورة هود : الآية ٤٧ .
٤- سورة الأعراف : من الآية ١٤٣ .

داود: " ... فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ "[1].

وحديث الرسول ﷺ " كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون " خير دليل على ذلك " .

حكمٌ عامٌّ يخضعُ له كلُّ ولد آدم ، (خطاء) وهناك الخيرية تقابل الخطأ إذا صدرت التوبة ، مع كل خطأ ، أو عقب كل خطأ .

وإذا كان هناك إنسان يستحضر الله فى كل سكناته وكل حركاته ، ويعلم علمَ اليقين أنه واقفٌ بين يديه وسيُحاسَبُ على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مع إنكارِ ذاته ، وعدم التعويل على ما قدم من خير ، وعدم الاغترار بمواقفه وشهادة الشهود له وأولهم رسول الله ﷺ فلا نبالغ ولا نجاوز الصواب إذا قلنا إنه لا يخطىء .

" فهو يعلم أن الله شديد الحساب وأن الله رحيم ، ولكن الجندى القوى إذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة ، فإن جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها ، فأكرم بطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص فى إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران " [2].

رجل يقود نفسه ويسيطر عليها سيطرة كاملة .

رجل آل على نفسه إن أدى شيئا فلا بد أن يقيمه على أكمل صورة وأتم إقامة

رجل يقدر كل التقدير الموقف أمام يدى الله ، وأنه موقف فى غاية الرهبة وساعة العرض ساعة فى قمة العسر.

١- اجتهاد الرسول - الشيخ (عبد الجليل عيسى) :(٣٤ – ٣٥) سورة ص : من الآيات ٢٤ : ٢٥.
٢- عبقرية عمر - للأستاذ العقاد - صفحة (١٣٥).

والله جبار ومنتقم وقوى ، وأيضا رحيم وعفو وحليم ، وهل الإنسان الكيس هو من يعتمد على صفات الرحمة ويعول عليها وأم من يتوقع أنه سيعامل بكل شدة ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة ؟؟

ومن يضمن ألا تكون هناك غِرة ، أو غفلة ، أو إهمال وتقاعس وتفريط من نفسه ؟

الإنسان مقضى عليه إن لم تدركه رحمةُ اللهِ وحلمه وعفوه يقول عمر " اللهم إنى أعوذ بك أن تأخذنى على غرة ، أو تذرنى فى غفلة أو تجعلنى من الغافلين "

ولا نخالف الواقع الإنسانى ، ولا نناقض المنطق إذا قلنا إن عمر لم يخطىء فالكمال الإنسانى منالٌ يمكن الوصول إليه ، وحينما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة من الكمال لا يدخله هذا فى مصاف الملائكة المبرئين من كل خطأ وذنب ، وإنما سيظل فى مصاف الآدميين يمثل الدرجة العليا ، أو يمثل غاية ما يطمح الإنسانُ أن يصِل إليه ، يمثل الإنسان الذى كادت أن تنعدم أخطاؤه وذنوبه أو انعدمت بالفعل لأنه طلب مخلصًا الصفحَ والغفران من الذين أخطأ فى حقهم ، وقبل ذلك مستغفرًا متضرعًا ، نادمًا منيبًا إلى الله باذلاً كل ما فى وسعه من سماحة معنوية وسماحة مادية عما نال الآخرين من ضرر ، ومع كل ذلك يبقى فى نفسه إحساسٌ بالتقصير فى ذات الناس وفى ذات الله ، فنفسُه الطاهرة النقية وروحه الشريفة المهتدية تظلان تصلان بين تلك المشاعرِ والأحاسيسِ المؤلمة كى لا يغتر بما قدم من تعويض وتكفير واستغفار كى لا يشعر أنه مبرأ من كل ما فعل ، وتسول له نفسُه الإقدام على إثم ، أو اكتساب ذنب أو ارتكاب خطأ ، فكل ما استغفر عنه ، وكل ما كفَّر عنه ما زال يحمل وزره على ظهره ، فما الضامن له أن فلانًا قد سامحه سماحة صادقة ؟

وما الضامن له أن الله قد غفر له ؟ وقبل منه ورضى عنه ؟

كل امرئ بما كسب رهين :

لا شىء يُمْحَى فى هذه الحياة الدنيا .

لا أحد ينفك مما فعله .

المسامحة والغفرانُ نوعٌ من الأمل ، نوعٌ من جبرِ النفس الإنسانية المنكسرة المثقلة بإحساس الذنب ، إن ما حدث فقد حدث ، فرضَه وألزمَه نقصُ النفس الإنسانية ، وإن الأبوابَ لن توصد فى وجهها ، ولن تجعل القنوطَ واليأسَ يشل النفسَ عن الحركة، أو يسلبَ إرادتها عن فعل الخير ، أو رغبتها فى التواجد الايجابى فى تلك الحياة . وإن أمامها أن تقومَ بعملية تعادلٍ أو توازن ، فعلتْ شرًّا بالأمس ، فَلأَفْعَلْ خيرا اليوم وغدًا ، بل ربما يكون فعل الشر أكبر الحوافز والدوافع لتقوم النفسُ بفعلِ الخير عن صدق وإخلاص رغبة فى التكفير والتطهير " إن الحسنات يذهبن السيئات " .

الغفران - وهذا شىء لا أحد يعلمه ، ولا أحد يضمنه - ليس نسيانًا لما حدث أو محوا لما وقع ، ولكنه - الغفران - دفع للنفس ألا تقف طويلا طويلا أمام لحظة ضعف تخليص النفس من أحبولة الغم والحزن ، كى لا تثقل وتسقط أجنةَ الأمل فى أن تبدأ عهدًا جديدًا بنية جديدة ، وإرادة وعزم جديدين على فعل الخير وتعمير الحياة بالعدل والجمال .

ويبقى بعد ذلك كل ما فعل الإنسان مسجلا كرصيد حىٍّ

" ... كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ "(١) ، " كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ " (٢)

١- سورة الطـــور : من الآية ٢١.
٢- سورة المـــدثر : من الآية ٣٨.

وقد يعترض معترض على هذا المنطق ... أكل ما يقدمه الإنسان من خير وأعمال صالحة وعبادة ليل نهار طوال عمره .... أليس من شأن كل هذا أن يجعل صفحته بيضاء مما شابها من شوائب الإثم والذنوب والأخطاء . ؟

هذا لا يكون إلا إذا كان ما يفعله تفضلاً من نفسه ومنـَّةً ، ولكن ما يفعله من طاعات هو من صميم مهامه التى خُلِقَ من أجلها : " وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ "[1] .

فمن أولى مهام الإنسان التى خلق من أجلها العبادة .

ولم نقول من أولى مهامه ، فليس له من مهمة سوى العبادة ، وأسلوب القصر فى الآية الكريمة يوضح هذا .

إذن لا يأتى إنسان متفاخرًا متباهيًا أنه صلى وتصدق و ..... و ..... طامعًا فى الغفران راغبًا فى جنة الله .

فالأمر ليس مقايضة مع الله .

قدمتُ لله طاعات وأعمالاً صالحة ، استحققتْ بالمقابل الجنة .

فالطاعات لا تمثل فضلاً للإنسان، أو منة يَمُنُّ بها على الله وإنما هى حق لله على الإنسان .

حتى وإن أدى كل الطاعات التى فرضها الله عليه كاملة كما أرادها الله وهذا شىء محال - لم يوف هذا الحق ، فكل تلك الطاعات قد - والله أعلم - توفى جزءًا بسيطًا من حق الله على العباد .

١- سورة الذاريات : من الآية ٥٦ .

وتبقى حقوق كثيرة لله على العباد ، لم توف ولن توفى وذلك من عظيم وجليل فضل ونعمة الله على الإنسان .

وتوفية الحقوق كاملة لا تكون إلا بين النظراء ، لأن توفية الحقوق تدخل فى مجال القدرة والاستطاعة ، حينئذ يستطيع النظير والقادر والمستطيع أن يوفى الحق لنظيره والنقص فى النظير يستتبعه نقص وتقصير فى تأدية الحق .

ولسنا نظراء لله .

إذن حقوق الله كاملة من المحال أن تؤدى من قِبل الإنسان لذا فنحن عاجزون عن تأدية حقوق الله ، ناهيك عن أن توفى هذه الحقوق ، ويبقى بين جوانح الإنسان الإحساس بالتقصير والتفريط فى جنب الله .

ويحاول الإنسان ما وسعه الجهد أن يخفف من هذا الإحساس النابع ليس من غفلة أو إهمال ، وإنما يرجع إلى سببين .

- عظيم الحق الإلهى .
- عجز النفس الإنسانية ومحدودية قدراتها إزاء هذا الحق .

إذن هو حكم على الذات الإنسانية ، أو قدرٌ مقدورٌ وملازمٌ لها بل مكَوِّن من مكوناتها.... أن هناك فجوة عميقة ، هوة واسعة تفصلها عن خالقها .

ويظل الإنسان يتحرق شوقًا أن يسد تلك الفجوة ، أن يعبر تلك الهوة ، أن يقترب ويقترب من خالقه ، وكلما اقترب ازداد ابتعادًا فبا قترُبه يدرك حقيقته القاصرة العاجزة الهينة ، وباقترُبه يبصر صفات الخالق بكل جماله وجلاله وبهائه وسنائه ونوره وعظمته وجبروته ورحمته .

أدرك عمر كل هذا إدراكا فطريا ، هذا الإدراك ملأ كل أفئدته ، وانعكس على أفعاله وتصرفاته .

من حديث يرويه أبو هريرة " ... قال رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة وأعطانى نعليه وقال اذهب بنعلى هاتين فمن لقيته من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة . وكان أول من لقيتُ عمرَ ، فقال ما هذان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إلا الله مستيقنا بها قلبه بشرتُه بالجنة ، فضرب عمر بيده بين ثديى فخررتُ لإستى . فقال : ارجع يا أبا هريرة فرجعت إلى رسول الله فأجهشتُ بالبكاء وركبنى عمر وإذا هو على أثرى . فقال رسول الله: مالك ، مالك يا أبا هريرة ؟ قلت لقيتُ عمر وقال ارجع . فقال رسول الله : يا عمر ما حملك على ما فعلتَ ؟ قال يا رسول بأبى أنت وأمى ، أبعثت أبا هريرة بنعليك هاتين من لقى يشهد أن لا إله الله مستيقنًا بها قلبه يبشره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال: لا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون فقال رسول الله ﷺ : فخلهم " .

هذا رجل يعرف عظيم حق الله على عباده .

وأن هذا الحق لا يختزل فى كلمة يقولها المسلمُ .

واستيقان القلب بتلك الكلمة مسألة قد لا يعيها الكثيرون وأمر لا يُعتمد عليه ، ومن ذا الذى يحكم أن قلبه قد بلغ مبلغ اليقين ؟

وقدْ يفهم البعضُ كلمة (بشرته) بالجنة أنه استحق واستوجب دخول الجنة لمجرد أنه أعلن الشهادة ، مع أن المقصود بكلمة (بشره) فرِّحه أو أدخل عليه السرور ، مثل قولك للطالب : من يذاكر فبشره بالنجاح . فالتبشير فى حد ذاته ليس ضامنًا للنجاح وقد يذاكر الطالب ولا يوفق إلى النجاح ، لخلل انتاب المذاكرة فليس أى مذاكرة تؤدى إلى النجاح .

فالتبشير هو مجرد أخبار مع إفادة الفرح والسرور... وقال الفخر الرازى أثناء تفسير قوله (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) " التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشرة تغيُّرا وهذا يكون للحزن أيضا فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين"[1]

و" قال الزجاج معنى يَبْشُرُك يَسُرُّك ويُفْرِحُك وبَشرتُ الرجل أبْشُرُه إذا أفرحته وبَشِرَ يَبْشُرُك من البشارة ، قال وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور ومن هذا قولهم فلان يلقانى ببشر أى بوجه منبسط "[2] .

كلمة قالها رسول الله ﷺ وهى من جوامع الكلم ، مبتغيا بها أسمى وأرقى وأعلى مرتبة يصل إليها المسلم ، معتمدا على قوة وإيمان ويقين المسلم ، فاتحا أبواب الأمل على مصراعيه ليلج المسلم إلى رضوان الله وجنته .

رغبات وطموحات نبى ، بقومه رءوف رحيم ، وهذا من شأنه أن يدفعَ المسلمَ لمزيد من الطاعات وتفان فى عمل الصالحات ، وتسابق فى فعل الخيرات ، فقد وضح واستبان الطريق إلى الجنة ، ولم يبق إلا العمل الذى يتناسب مع الجائزة الكبرى

هذا هو قصد النبى ونيته ، والدليل على ذلك الحديث (روى البخارى عن المغيرة كانﷺ يقوم حتى تتورم قدماه أو ساقاه ، فقيل : لم هذا وقد غفر لك ؟ فقال، أفلا أكون عبدًا شكورًا) .

غفرانٌ وصفحٌ من الله يقابله مزيد من العبادات واجتهادات فى الطاعات وتفان فى تحقق العبودية لله امتنانًا وشكرًا على فضل ونعم الله .

١- تاج العروس - الجزء الأول - (٢٥١٤).
٢- لسان العرب - الجزء الرابع - (٥٩)

ولكن عمر أدرك أن ليس كل الناس على هذا الوعى والفهم ، فضمانُ الجنة مدعاة للتقصير والتفريط ، لأنهم يفهمون أن العمل يصل بهم إلى الجنة ، أما وقد ضمنت الجنة بكلمة تقال ، كل رصيدها يقين فى القلب ، فما لنا وإجهاد النفس وتجشيمها مشقة العبادات والطاعات ؟! .

حتى وإن حملنا النفس على العبادة وعمل الخير ، فليس هناك مبررٌ لتكليفها ما يشق عليها .

مراجعة رجل يفهم ويعى عظيم وجليل حق الله على العباد وأن الجنة ليست ثمن الطاعة ، لأن العبادة صادرة من الإنسان لأن هذا حق الله على العبد . أما الجنة فهى نوعٌ من فضل الله ورحمته ، إن شاء أنعم ومنَّ بها وإن لم يشأ فلا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته.

مراجعة رجل يفهم ويعى خبايا النفس الإنسانية ونوازعها ، ويعرف أن النفس متى اطمأنت إلى شىء وضمنته ، مالتْ إلى التقصير والإهمال فلا شىء يحفزها إلى العمل والإسراع إلى إنجاز؛ قدر الخوف والقلق عليه ، وتخشى أشد ما تخشى الخسران والضياع .

ولم يخطىء عمر فى حق أحد من الرعية إلا ولام وأنَّب نفسه حتى ولو كان هذا الخطأ ضربة هينة من درته ، ولا يكتفى بذلك بل يعمد إلى مبدأ القصاص ويتمادى فى ذلك ويدفع تعويضًا للذى ناله ضررٌ.

" عن عاصم بن عبيد الله قال : كان عمر بن الخطاب تحت شجرة فى طريق مكة فلما اشتدت عليه الشمس أخذ عليه ثوبه وقام ، فناداه رجل غير بعيد منه يا أمير المؤمنين هل لك فى رجل قد رثدت حاجته وطال انتظاره ! قال : من رثدها ؟

قال : أنت . قال : فجاراه القول حتى ضربه بالمخفقة .

فقال : عجلت على قبل أن تنظر فىَّ ، فإن كنت مظلومًا رددت إلىَ حقى وإن كنت ظالما رددتنى .

فأخذ عمر طرف ثوبه وأعطاه المخفقة . وقال له : اقتص ! .

فقال : ما أنا فاعل . فقال : واللّه لتفعلن أو لنفعلن كما يفعل المنصف من حقه ! .

قال : فإنى أغفرها فأقبل عمر على رجل . فقال : أنصفه من نفسى أصلح من أن ينتصف منى وأنا كاره ، فلو كنت فى الإدراك لسمعت - عمر - يعنى بكاءه "

هذا رجل يشكو عمر إلى عمر ، إنه انتظر طويلا كى يعرض حاجته ومسألته على عمر وعلى ما يبدو أن الرجل قد نفد صبره من طول الانتظار وكان حديثًا بين الرجلين انتهى بضرب عمر الرجل بالمخفقة ؛ غضب الرجل من عمر ، وقال له إنك لم تنظر فى شكواى ولم تتخذ أحد أمرين إما أن تنصفنى وترد حقى إذا كنت مظلومًا ، وإما أن تكفنى عن ظلمى إن كنت ظالمًا . عمر أخطأ فى حق الرجل .

وكثيرون من الحكام يخطئون ، وهذا الخطأ تدفع ثمنه الشعوبُ والأممُ لعشرات السنين .

وكثيرون من القضاة يخطئون ، ويظل المظلوم حائرًا بين المحاكم ومكاتب المحامين محاولاً أن يصحح خطأ القاضى غارمًا من الجهد والمال والوقت الكثير وقد يوفق فى مسعاه وقد يخيب .

ونسمع ونقرأ ونشاهد أن قضاة أصدروا أحكامًا بالسجن وبعد قضاء المسجون سنوات سجنه الطويلة يكتشفُ الخطأ . ولا ضير يقع على القاضى .

والشعوب قد تتسامح فى خطأ الحكام ، بل هناك من يدافعون عن هؤلاء الحكام ويبررون أخطاءَهم .

ولكن عمر لم يجادلِ الرجل ، ولم يطيب خاطره بأن يقضى حاجته وينظر فى شكايته وإنما جنح إلى القصاص ، وبالمخفقة التى ضربه بها ، أعطاه إياها وقال له: اقتص .

رفض الرجل .

أصر عمر .

ولكن الرجل غفرها له .

إلى هنا والأمر وصل إلى نهايته .

ولكن مع عمر لم ينته .... لجأ إلى رجل وطلب منه أن يقوم بعملية القصاص رجل ليس طرفًا فى الموضوع ولا علاقة به ، لم ؟!! .

كى لا تبقى فى نفس عمر حزازة أو كراهة للرجل الذى أنصفه من نفسه ؟ لا نستطيع أن نقول أكثر من ذلك على تلك الحادثة ، ومهما قلنا فلن نضيف جديدًا لجلال وعظمة ودلالة هذه الحادثة .

" عن جابر الجعفى . أنه سمع سالم بن عبد الله قال : نظر عمر إلى رجل أذنب ذنبًا فتناوله بالدرة فقال الرجل : يا عمر لئن كنتْ أحسنتْ فلقد ظلمتنى ، وإن كنتْ أسأتْ فما علمتنى ! . قال : صدقت فاستغفر الله ، دونك فاقتد من عمر . فقال الرجل : أهبها لله وغفر الله لى ولك " .

هنا أخطأ عمر أيضًا .

مع أن اللوم يقع على الرجل ، فقد أذنب ذنبًا ، وظاهر الأمر يحكم بذلك ، وإن كنا لا نعرف ما هو الذنب ، فلا يوجد هنا إجراءات الضبط والتحقيق وإحالة القضية إلى جهة مختصة ... وظروف الزمان والمكان ...

الحاكم يرى رجلاً يرتكب ذنبًا ، فيعاقِب عليه فورًا .... ثم إن العقاب لا يمثل ألمًا جسمانيا بقدر ما هو نوع من الردع والتأديب ، أو لنقل بالمصطلح الحديث (لفت نظر) .

ويقول الرجل لعمر : أنت لم تسألنى ، ولم تحاكمنى ، فربما ما فعلتُه ليس بذنب، فلو كان هذا فقد ظلمتنى ، وإن كان ما فعلتُه ذنبا فربما فعلتُه عن غير قصد وعن غير عمد أو فعلته بجهالة ، فالمفروض أن تعلمنى أن هذا ذنب يُعاقَبُ عليه وكما يقولون : (لا تجريم إلا بنص) .

ولكن هذا ما حدث .

وتأمل سلوك عمر ... طلب الغفران من الله ، فقبل أن يكون الخطأ فى حق الناس هو فى حق الله .

ثم بعد ذلك ... عمر يعرض على الرجل القصاص .

الرجل يرفض !! .

الجميع يرفضون القصاص من عمر !! .

هل يرفضون لأنهم يهابون عمر ؟

نعم .

ولكنهم هل يهابون عمر لأنه محاط بالحرس والجلادين والحاشية ؟

أم أنهم يهابونه لأنه يمثل سلطان الله فى الأرض ، ولأنه يمثل الوازع الدينى والخلقى والضمير الجماعى .

إن تكن الأولى فإن عمر يدور فى مصاف الحكام المستبدين الذين يحكمون بالحديد والنار .

وإن تكن الثانية فإن عمر يمثل العدل والإنصاف بل قمة العدل والإنصاف إنها نفسٌ نبيلةٌ ، لا تنسى الإساءة مهما صغرتْ ، وإن لم يدفع تعويضًا من ذات النفس وهو القصاص يدفع تعويضًا من ذات اليد.

" عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مرَّ علىّ عمر بن الخطاب وأنا فى السوق وهو مار فى حاجة له ، ومعه الدرة فقال: هكذا أمط عن الطريق يا سلمة . قال ، ثم خفقنى فما أصاب إلا طرف ثوبى ، فأمطت عن الطريق فسكتَ عنى حتى كان العام المقبل فلقينى فى السوق . فقال : يا سلمة أردت الحج العام ؟

فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيدى فما فارقتْ يده من يدى حتى دخل بى بيته ، فأخرج كيسًا فيه ستمائة درهم فقال : يا سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتُك عام أول . فقلت : يا أمير المؤمنين ما ذكرتُها حتى ذكرتنيهما ! قال : واللّه ما نسيتُها بعد " .

" فأخذ بيدى فما فارقت يده من يدى " ابحث عن عنوان تضع تحته تلك الجملة أو ابحث عن بند أو لائحة أو قانون فى دساتير العالم كله يفسر هذا الموقف فلن تجد .

" ستمائة درهم تعويض عن الخفقة التى خفقتك عام أول " العقوبة عند عمر لا تسقط بالتقادم ، عام كامل يمر ، رغم الأعباء والمهام الصعبة وتنظيم دولة ، ورعاية أمة ومتابعة جيوش فى الشام والعراق ومصر ، ومراقبة ولاة .... إلخ ، لم ينس عمر ضربة لم تصب إلا طرف ثوب سلمة ، ويمر عليها عام ... يدفع الحاكم من حر ماله ستمائة درهم !! .

ونحن فى العصر الحديث لا نريد من الحكام أن يسيروا سيرة عمر ، فهذا شىء محال - كما قلنا - ولكن الشعوب تريد من حكامها أن يسيروا بمحاذاة عمر ، أن تضعه أمامها

لتتأمله ، أو لتعرف أنه فى زمان ما ، وفى مكان ما ، كان هناك حاكم لم يكن يأكل أو يشرب أو ينام أو يصحو أو يتنفس إلا ليعدل ، ويصلح .

وتجد رفقه وحرصه وعطفه يفيض من الإنسان حتى يشمل الحيوان الأعجم "عن سلام بن صبح التميمى قال ، قال الأحنف بن قيس ، وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فقال أين نزلتم ؟

فقلت فى مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ ركائبنا هذه فجعل يتخللها ببصره ، ويقول ألا اتقيتم الله فى ركائبكم هذه ؟ألا علمتم أن لها عليكم حقا؟ ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض ؟

فقلنا يا أمير المؤمنين ، وإنا قدمنا بفتح عظيم ، فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرهم " .

أهم ما يشغل أى حاكم الفتوحات ، لاسيما ولو كان الفتح عظيمًا ولكن عمر ليس أى حاكم ... لم يكترث للأمر ، ولم تأخذه زهوة النصر ، وذهب ليتفقد الركائب وعلى ما يبدو أن الفاتحين شغلهم تبليغ عمر والمسلمين بهذا الفتح ، فتركوا الركائب ولم يحرروها ، ولم يقدموا لها الطعام والماء .

والرفق بالحيوان فرع متفرع من الرفق بالإنسان ، أو قضاء الحق مهما كان هذا الحق هينًا وبسيطا ، سواء أكان هذا الحق متعلقًا بالإنسان أى إنسان أم بالحيوان .